ضوء أزرق في منتصف الليل

د / عبير عبدالظاهر

قارب الليل منتصفه، كان المقريء مازال يُرتل القرآن والحضور جالسون في خشوع يليق بجلسة عزاء والدي، لكن أنفاسي متسارعة كأنها في سباق ودقات قلبي نصبت حول عنقي فروع غليظة لشجرة تملأها الأشواك، غالبت ذلك الشعور متظاهرًا بحزن لم أعرف مذاقه يومًا، ولمّا انتهى العزاء أسرعت نحو حصاني الواقف في الخلاء دون أن ألتفت لمن التفوا حولي لمواساتي، أطلقت العنان للأدهم بسرعة أشق الظلام حتى سرت بمحاذاة الترعة، أبطأت وتأملت سكونها ، كان الظلام يكسوا كل شيء، ظلام صامت ثقيل الوطء على الأذن، دار برأسي شريط ذكرياتي مع أبي، عشرون عام وأنا صامت خلف قضبان غضبه، هل كنت حقًا ابن عاق؟

ألم أفهمه كما ينبغي كما كانت أمي تُردد دومًا؟ لا أدري، وما الفائدة الآن وقد ذهب لمكان تصعب فيه الإجابة كما يستعصي عليَّ الآن أي شعور بالأسى.

وفي غفلة من الزمن وغفوة لعقلي المشحون بالتساؤلات وجدت نفسي أقاوم الغرق أنا والحصان، كان يصهل بشدة، حاولت الاتزان والسباحة لأنجو، ضربت بيدي أولًا بحثًا عن الحصان الذي اختفى صوته تمامًا الآن، لكني لم أتعثر فيه، بدأ جسدي يرتجف رغم إرتفاع حرارة هذا الصيف!

وصلت أخيرًا لضفة الترعة ، صعدت بحذر متشبث بصخور متناثرة قد غمرها الطين حتى وصلت واستلقيت على ظهري، التقطت أنفاسي بصعوبة ،ثم هدأت قليلًا وقمت موجهًا نظري نحو الترعة بحثًا عن الحصان ، شعرت بلسعة كلسعة الكهرباء تسري في شراييني عندما لاح ضوء أزرق يشق مياه الترعة من الجهة الشرقية بسرعة خاطفة ويزداد حجمًا وتوهجًا كلما اقترب ، وضعت يدي فوق عيني مانعًا قوة الضوء أن تمزق عيني، صدرصوت أشبه بالهمس من ناحيته لم أفهمه ثم علا تدريجيًا، فكان صوت أنثوي ينطق بحروف اسمي بطريقة لم اعهدها.

فتحت عيني فاندفع جسدي للخلف إثر طاقة نشأت من الضوء أفقدتني توازني ، قاومت السقوط و تصلبت مكاني ، ظهرت أمامي على بُعد سنتيمترات، فتاة لا تشبه الفتيات ترتدي فستانًا طويلًا يفرش سطح المياه يشع ضوءً أزرقًا قلت حدته بعد ثوان حتى استطعت تمييز ملامحها المرمرية، وتلك الحلقات الذهبية المتشابكة في أجزاء جلدها المكشوفة، ابتسمت لي فركتُ عيني علَّه حلم، لكنها مازالت أمامي تبتسم وتنطق حروف اسمي على أنغام نايٍ، سرت إرتعاشة في جسدي وابتعدت أكثر، مدت يدها نحوي، حاولت الهرب، لكن ذراعها اليمني تلوّت واستطالت و تحولت لأفعي زرقاء زحفت نحوي بسرعة والتفت بإحكام حول ساقي وصعدت حتى وصلت جذعي بنعومة.

كدت أختنق وقد تحولت نعومتها لقيد يضيق حول صدري ، حاولت الصراخ لكن صوتي انحشر ولم يسعفن، تلفت حولي بتشنج ولم أجد سوى انعكاس الضوء

الأزرق علي الدور والأشجار ومياه الترعة فنظرت نحوها مباشرة مستفهمًا بفزعٍ، فوجدتها مازالت تبتسم وتتوهج وجنتيها ، وكأنها قد أصابها الخجل وترقرقت عيناها و انحنت رأسها قليلًا، رفعت ذيل ثوبها الأزرق قليلًا ؛ ففزعت لذيل السمكة الضخم الذي يتلوى تحت ثوبها، أهي حورية إذن أم جنيّة؟

اقتربت أكثر مني وقلَّت سيطرتها علي أنفاسي؛ فتنفست وسألتها وأنا أرتجف: - من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

قرّبت عينيها المتسعة زرقاء اللون من عيني وقالت بصوت تردد صداه آلاف المرات:

-"أنا حبيبتك."

-حبيبتي! كيف يكون ذلك ؟ كان ردي سريعًا يشبه الصراخ كالملسوع لتوه من عقرب!

-فأجابت: "نعم حبيبتك يا فاروق."

-فاروق! كيف عرفتِ اسمي؟

-أومأت وقالت: أنها تنتظرني منذ ألف عام، بمنتصف كل ليلة تجلس على سطح الماء وتشتعل مللًا، متوهجة بضوء أزرق فيراها أهل القرية وقد دب الخوف قلوبهم ويغلقون أبواب دورهم حتى شروق الشمس، ثم علا صوتها باعتراف زلزل الأرض من تحتي:

"أنت الحبيب الإنسي الذي انتظرته "

انفجرت مياه الترعة تحتها وانفتحت هوة بدت عميقة، استعذت بالله من الشياطين والجنّ ، جلجلت ضحكتها ساخرة، هي الأساطير القديمة إذن التي كانت

تُروي لنا ونحن صغار عن تلك الترعة في الليل، وكيف كانت التحذيرات تنهال علينا من السير جانبها في الظلام، كنا نرسم في مخيلتنا صورة الجن التي تلوح خلف الضوء الأزرق الذي يتوهج من ناحية الترعة حسب رواياتهم فتُغلق النوافذ وتوصد الأبواب ، تخيلناها وجوه مضلعة، رؤوس ذوات قرون أكباش، شعور حمراء مشعثة، عيون لا حصر لعددها، أطراف ذات حوافر وذيول طويلة والنيران تشتعل في خلفية ذلك المشهد المهيب.

كنا نرتعب حد الصراخ فيَنهرني والدي ويخرسني نافيًا وجود الجن في قريتنا؛ فنحن أهل صلاح ، القرآن يصدح في كل بيت، لكن تلك الحكايات ظلت راسخة بعقلي، فأين أنت الآن يا والدي لترى ابنك أمام جنية تلف أفعى حول جسده حلوة الملامح صوتها جذّاب تنتظره منذ ألف عام لتقدمه قربانًا لتلك المملكة الخفية؟ هل كنت ستنهرني الآن منهالًا عليَّ بجميع اتهامات الضعف وخيبة الأمل؟! تُري هل كان وجودك هو ما كان يمنعها؟ حصن الأمان حسب رأي أمي! علا صوتها فجأة مخرجة عقلي من شروده وقالت:

-"لقد آن الأوان فالفجر قد حان."

جذبتني بشدة؛ فصرخت قاومت بما تبقى لي من قوة وسطوة أفْعتها وهي تجرجرني كالذبيحة خلفها نحو الترعة، سال دمي تحتي ورأيت بحرًا ينضح خلفي بالدماء، حاوطني جسدها فأصبحنا كتلة واحدة من ضوء أزرق حلزونية الشكل كاد أن يغشي عليّ وأنفاسي تنحشر بين حلقاتها الذهبية وحرارة جسدها النارية!

تلت طلاسم لم أفهمها و قفزنا داخل تلك الهوة العميقة المنفتحة كانت النيران تلتهم جدرانها انزلق قلبي جهة حلقي ورأيت سائل أبيض كالدهن يسيل من

جمجمتي، همست في أذني ولم أسمع ، عضت عليها بأسنانها الحجرية فقضمتها تاركة اليسير منها يأن، تدحرجت عيني اليسري من محجرها فأمسكت قاتلتي بها ولثمتها وعلقتها في حلقة ذهبية عند كتفها ، لم أعد أشعر بشيء إلا من رؤية رؤوس ذوات قرون تنظر نحوي من قاع الهوة، تفتح أفواهها فتخرج النيران منها ، ملأ الدخان حلقي حتى وصل نياط قلبي فاحترق وتناثر رماده أمام عيني، سُلبت مني الحياة تمامًا ولمّا اقتربنا من الأفواه المنفرجة إذا بيد باردة تخلص جذعي من قبضة الأفعي وبيدٍ أخرى ألفتها تمسك سيفًا تجتثني كجذر شجرة لكني لم أمت شعرت بالحياة تسري من جديد في أرضي الخاوية، وترفعني نحو سطح الأرض كان هناك صوت يهمس في أذني ببعض آيات (يس) وبعد أن استقر جسدي علي الأرض انسدلت ستارة سوداء فوق عيني حاجبة وجه أبي وهو يبتسم وينظر لي!

لا أدري كم من الوقت مر أهي ثوان أم ساعات أم أيام حتى سمعت أذان الفجر ينطلق بصوت رخيم، فتحت عيني فكانت السماء فوقي وقد خط الشروق أول الضوء فيها وهلال يراقبني وهو يبتعد تاركًا السماء لوصول الشمس، نهضت من مكاني وكل سنتيمتر من جسدي ينز ألمًا، كانت الترعة هادئة والحصان واقف على مقربة مني ينفض عنه قطرات ماء ، دارت الدنيا مرات ومرات وأنا أتأمل ما حولي في ذهول، حاولت اقناع نفسي أنه حلم في غفوة غير مقصودة، ربتُ علي ظهر الحصان لطمأنته وامتطيته عائدًا للدار، سرت ببطء مطأطيء الرأس من الألم لكن قلبي انخلع مني عندما رأيت بريق حلقات ذهبية ملقاة على الأرض، فكرت النزول من على الحصان والتقاطها لولا خوفي؛ فأسرعت هربًا من ذلك المكان وأنا أترحم على والدي وأتذكر وجهه الباسم لأول مرة.